الفصل الثالث

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر محمد على

لم يخل الديوان من التعرض لبعض النواحى الاجتماعية والثقافية والحياة اليومية للشعب المصرى حيث أوضحت وثائقه بعض العادات والتقاليد التى كانت سائدة ، ومحاولات محمد على تنظيمها ، واضفاء سيطرة الدولة على شئونها ، وبعض هذه النواحى صحية مثل عملية الختان والولادة والفصادة ، وبعضها خاصة بحماية الأهالى من اللصوص والمزورين وردعهم ليكونوا عبرة لغيرهم مثل اعدام اللصوص والمزورين ذوى السوابق المتعددة ، ومعاقبة شاهدى الزور والمتاجرين بأرواح الأهالى وبعضها خاص بالهروب من البحرية ، ونظام تعداد النفوس .

هذا بالاضافة الى نواحى أخرى مثل تنظيم المهن كمهنة السمسرة أما عن النواحى الثقافية التى تعرض لها الديوان فقد اقتصرت على ديوان المدارس وفيما يلى نعرض لذلك .

١ ــ مزالة مهنة التوليد والختان والفصادة :

حتمت الحكومة على الأهالى التأكد من هوية المصرح لهم بمزاولة هذه المهنة قبل اجراء أى عملية ، وذلك بأن يقدم الراغب فى ختان أحد من أولاده الى مجلس الصحة التابع للمنطقة التى يقطن فيها ما يوضح اسم الحلاق الذى سيقوم باجراء عملية الختان فيقوم المجلس بالاستعلام عن الحلاق فاذا كان من المصرح لهم باجراء عملية الختان أجيز له أجراء العملية [1] كما توضح لنا الوثائق أن الحلاقين والدايات الذين صرح لهم

---

(١) دار الوثائق : ديوان التجارة والزراعة (عربى) صادر وارد ج ١ ص ٢٤

بمزاولة مهنة التوليد والختان والفصادة كانوا يحملون تذاكر حكومية مطبوعة ثمن الواحدة منها عشرون قرشا تعطى للراغبين فى تختين أولادهم، أو للحوامل من السيدات اللاتى حان موعد ولادتهن ، ثم يسدد ثمن هذه التذاكر الى مجلس الصحة .

٢ ــ محاولات الحد من ظاهر اللصوصية والتزوير :

وحول زيادة عدد اللصوص داخل القاهرة ومحاولات محمد على الحد من هذه الظاهرة المقلقة فقد أمر مأمور ديوانه بأن يعدم كل لص شرير له سوابق فى اللصوصية ويتم القبض عليه ، وذلك بهدف قطع دابر هؤلاء بعد أن وصل الى سامعه بأن اللصوص الأشرار قد تزايد عددهم فى المحروسة [٢] ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد بل طالب محمد على باعدام أشرار اللصوص الموجودين داخل السجون بدلا من حبسهم حتى يكونوا عبرة للآخرين [٣] ونتيجة لذلك قل عدد الجرائم .

وقد يجرنا ذلك الى ان نتساءل عن طريقة التحقيق مع المتهمين قبل الحكم عليهم ؟

تجيب الوثائق بأن محمد على كان يتوخى الدقة فى التحقيق من أمر المتهمين ، وصحة المعلومات التى تصل للمسئولين عنهم والتحقق من خطورة جرائمهم ، كما انه وافق على رأى رجال الدين بضرورة « تفقد السجون بين حين وآخر توطئة لمعاملة كل سجين بما يستحقه من عقوبة حسب نوع الجريمة التى فعلها فالذى يستحق الضرب منهم يضرب ثم يخلى سبيله والذى يستحق النفى ينفى فى الحال ، والذى يستحق عقوبة السجن الطويل يبت فى أمره فى أقرب وقت » [٤] كما أمر بألا يسجن المذنب مدة

---

(٢) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٦) من الجناب العالى الى حبيب أفندى مأمور ديوانه فى ٢٤ رمضان ١٢٤٩ هـ .
(٣) نفسه : فى ٢٥ رمضان ١٢٤٩ هـ .
(٤) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٢١) من الجناب العالى الى ارتين بك مدير مبيعات الاسكندرية فى ١٨ رجب ١٢٦٠ هـ .

طويلة دون أن يحقق معه « اذ ان ذلك له اثره فى حياة السجين ، وحياة الأسرة التى يعولها » .

كما أمـــر حكام الجهات بتفقد السجون أسبوعيا ، وأن يتولوا الفصل فى قضايا السجناء فى وقتها ، وهو بمعاقبة الحكام الذين يهملون فى ذلك بأشد العقوبات (٥) .

أما عن حالات شهادات الزور وطريقة معالجتها فانه بعد أن ازدادت حالات رفع القضايا القائمة على تهم ملفقة الى المحاكم الشرعيـــة كتب محمد على الى الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهـــر يستفتيه فى هذه المسألة ، فكان رده هو تحصيل رسوم للمحكمة من هؤلاء واذا كان المزور من الأزهر فبالاضافة الى تحصيل الرسوم منه يرسل الى شيخ الأزهـــر لمعاقبته (٦) .

٣ ــ محاولات ردع أصحاب المراكب الذين يتجاوزون الحمولة :

وعن محاولات ردع أصحاب المراكب الذين يهتمون بالكسب السريع دون النظـــر الى مراعاة أرواح الأهالى حيث كانـــوا ينقلون الأهالى من شاطىء الى آخـــر ، ويتجاوزون حمولة المراكب طمعا فى الكسب مما يتسبب عنه غرق الناس ، فقد تم التنبيه على هؤلاء وسائر المراكبية الا يركبوا أشخاصا أو أشياء زيادة عن الحد ، ويجب أن يفهموا انه اذا أركب شخصا زيادة وغرق فان ذلك الريس سوف يعاقب بالقتل (٧) .

٤ ــ ظاهرة الفرار من الخدمة بالبحرية المصرية .

ويتضح من وثائق هذا الديوان قيام بعض الجنود بالفرار من خدمة

---

(٥) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٢١) من الجناب العالى الى أرتين بك مدير مبيعات الاسكندرية فى ١٨ رجب ١٢٦٠ هـ .

(٦) نفســـه : محفظة رقم (٦) من الجناب العالى الى حبيب أفندى مأمور ديوانه فى ٩ رمضان ١٢٤٩ هـ .

(٧) نفســـه : محفظة رقم (١١) من محمد على الى نجله فى ٣ رجب ١٢٥٤ هـ

الأسطول المصرى ، كما يتضح أن كل من كان يدخل فى خدمة الاسطول يرسم على يده الوشم علامة انفار البحرية لذلك حاول بعض الهاربين من الجنود تعديل الوشم المرسوم على أيديهم خشية التعرف عليهم ، ولما وصل ذلك الى مسامع الباشا طالب البحث بجدية عن هؤلاء الجنود الفارين، والقبض عليهم واعادتهم الى الاسطول حرصا على ألا يتكرر ذلك من أمثالهم (٨) .

د ــ العمل بمهنة السمسرة :

لم تكن مهنة السمسرة متاحة لكل من يرغب العمل فيها ، بل كانت هناك شروط لمن يريد الانتساب اليها وهى أن يتقدم بطلب الى مجلس تجار مصر يعرب فيه عن رغبته فى الانضمام الى هذه الطائفة فاذا ووفق على طلبه يتم وضعه تحت الاختبار لمدة ستة شهور ليتبين مدى صلاحيته من عدمها ، فاذا ثبتت صلاحيته ووجدت فيه الأهلية والاستعداد والاستقامة يعطى له مجلس التجار رخصة يعمل بمقتضاها مع هذه الطائفة (٩) .

٦ ــ تعداد النفوس :

وعن عمليات احصاء تعداد النفوس فقد أمر محمد على بعمل تعداد لنفوس الأهالى ، ويبدو أن هذا التعداد فى أول أمره كانت تعوزه الدقة خاصة وان بعض الفلاحين كانوا يفرون من قراهم اثناء عملية التعداد خشية الحاقهم بالخدمة العسكرية أو هربا من الضرائب الملقاة على عاتقهم، ونتيجة لذلك أمر محمد على مديرى الجفالك باليقظة وتوخى الدقة فى احصاء النفوس التى بعهدتهم والعمل على ارجاع المتسحبين من الأهالى الى قراهم ، وحذرهم بأنه اذا ظهر من مراجعة التعداد الذى يقوم به مفتشوه

---

(٨) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٦) من الجناب العالى الى حبيب أفندى مأمور الديوان فى ٢١ شوال ١٢٤٩ هـ .

(٩) دفتر صادر الزراعة عربى ١٢٩٣ تحت رقم ج/١٠/٢/١ ص ٢٢ ، ٢٥ .

من بعدهم كشوفات ناقصة عن عدد الأهالى ستتم معاقبتهم [١٠] . ونتيجة لتعذر اعادة المتسحبين الى قراهم فى موسم الحصاد خاصة وان معظمهم كانوا يختفون فى الصحراء ، ويبيتون خارج قراهم فقد طالب محمد على مديرى الجفالك بأن يتم عمل الاحصاء فى الشتاء [١١] حتى يكون المتسحبون قد عادوا الى قراهم .

وبموجب اتمام التعداد كانت تستكمل غالبا آليات الجهادية بالأنفار اللازمة ، وكان يحدد لكل مديرية عدد معين حسب تعدادها للالتحاق بالجهادية ، وكان الفرز يتم باجراء الكشف الطبى على الأفراد الصالحين للعسكرية بمعرفة كبير الأطباء وأحد ضباط الآلاى الذى سيجند به الشبان المختارون [١٢] .

٧ — محمد على وتجار الذهب :

يتضح من وثائق الديوان قيام محمد على بفرض رسوم ثلاثة فى المائة على المصوغات التى يقوم ببيعها تجار الذهب ، وان هؤلاء الصياغ تضرروا من ذلك [١٣] ، كما يتضح انه عندما بلغ محمد على أن أحد اليهود المقيمين بمصر يأخذ الأتربة الموجودة عند الصاغة الى ورشة سك النقود ويستخرج منها ذهبا باحراقها فى فرن أمر بضرورة الاسراع بارسال هذا اليهودى اليه ومعه أدواته وآلاته [١٤] .

---

(١٠) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم ٢٦ بتاريخ ٢ محرم ١٢٦٣ هـ رسالة من الجناب العالى الى رشيد بك مدير جفالك الجهة الشرقية والقبلية فى ٢٦ شعبان ١٢٦٣ هـ .

(١١) نفسه : من الجناب العالى الى ابراهيم اغا الألفى مدير جفالك شرق الجهة القبلية فى ١٤ الحجة ١٢٦٣ هـ .

(١٢) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٣) من الجناب العالى الى مدير الغربية .

(١٣) ديوان التجارة عربى : صورة الصادر للداخلية ، عرضحالات ص ٨ .

(١٤) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (١١) من محمد على الى مدير الديوان فى غرة ربيع ثان ١٢٥٤ هـ .

٨ — محمد على ومحلات بيع الخمور :

كان محمد على حريصا على استرضاء مشاعر المسلمين وعدم مسها، فعندما بلغه أن عددا من الدكاكين والمحلات القريبة من المساجد وبيوت المسلمين وعددها مائة وعشرة قد استؤجرت لبيع الخمر والمسكرات حذر محمد على أصحاب هذه المحلات من بيع المسكرات والشرب بين منازل المسلمين وجوامعهم كما أمر « بمنع المسكرات والشرب فى محلاتهم وان الذى يخالف هذا الأمر يغلق باب محله حالا ، ومن يوجد أنه يبيع المسكرات ويشربها خارج دكانه يغلق دكانه وباب داره معا » (١٥) .

يضاف الى ذلك أنه قام بمفاوضة القناصل لاتخاذ القرار فى شأن المشروبات الكحولية المزمع صرفها لرعاياهم (١٦) .

٩ — محمد على والاهتمام بأمور المساجد :

كان محمد على ينعم بعدد من الأفدنة لتكون مربوطة بادارة المساجد كى يصرف من ريعها على أمام المسجد والمؤذن والخدم يضاف الى ذلك انه كان يستجيب لمتطلبات اصلاح المساجد فعندما قابله شيخ الجامع الأزهر ومفتى المالكية وأوضحوا له ان منارة الجامع الأزهر فى حاجة الى اصلاح يتكلف ستة آلاف قرش والتمسا منه المساعدة ، امر محمد على بتنفيذ المطلوب حسب طلبهم ، وصرف المبلغ المذكور من جانب الميرى (١٧) .

هذا ما تعرضت له وثائق الديوان من نواحى اجتماعية ولم يبق سوى تعرضها للتعليم .

---

(١٥) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (١٢) من محمد على الى مدير ديوانه فى ١٤ رجب ١٢٥٤ هـ .

(١٦) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٨) من الجناب العالى الى بوغوص بك .

(١٧) نفسه : محفظة رقم (١٣) من محمد على الى صاحب السعادة كتخدا فى ٢٠ محرم ١٢٥٥ هـ .

١٠ ــ محمد على والتعليم :

تشير الوثائق الى أن رغبة محمد على فى اصلاح التعليم شـــملت اتجاهين هما انشاء المدارس الحديثة ، وارسال البعثات الى بلدان أوربا المختلفة لارتشاف مناهل العلم هناك وأعداد النواة المثقفة التى يمكنها بعد عودتها الى مصر أن تحل مكان الأجانب من الأطباء والمهندسين والضـــباط والأساتذة وغيرهم ومن أجل ذلك كان محمد على يتتبع أخبار الطلاب الذين يرشحهم ديوان المدارس للسفر الى أوربا لتحصيل العلوم العصرية هناك ففى رسالة له الى أرتين بك مدير الأمور الافرنجية يطلب اليه ان يقـــوم باركاب الاثنى عشر تلميذا الذين فرزوا من ديوان عموم المدارس،ومن تلاميذ المهندسخانة المسافرين الى انجلترا لتحصيل فن الميكانيكا عند قدومهم اليه فى وابور انجليزى ، ثم ارسالهم الى انجلترا [١٨] كما طالبه بأن يكتب كتابا الى المسئولين هناك لتنظيم ما يلزم هؤلاء الطلاب وتوزيعهم على المصانع على أن يصرف لكل منهم مرتب شهرى قدره مائتان وخمسون قرشا [١٩] .

ولمـــا قدم رفاعة الطهطاوى من باريس رأى محمد على طـــريقتين للاستفادة منه الأولى ارساله الى مدرسة الطب فى أبى زعبل ليعلم تلامذتها اللغة الفرنسية والثانية هى قيامه بترجمة الكتب من الفرنسية الى العربية واخيرا استقر رأيه على ارساله الى مدرسة الطب لأنه بذلك سيقوم بتعليم اللغة الفرنسية للطلاب ، « ويخرج كل سنة ما بين خمسة وعشرين وثلاثين مترجما » [٢٠] يقومون بحركة ترجمة واسعة لنقل علوم الغرب الىالعربية والتركية حتى يفهمها التلاميذ .

---

(١٨) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٢٧) من الجناب العالى الى أرتين بك مدير الأمور الافرنجية فى ٢٧ محرم ١٢٦٤ هـ .

(١٩) محمد شفيق غربال : محمد على الكبير ، القاهرة ، دائـــرة المعارف الاسلامية ص ١٠٨ علما بأن نفقات تعليم هؤلاء المبعوثين كانت تخصم من ثمن القطن المصدر الى لانكشير .

(٢٠) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٦) من الجناب العالى الى محمود بك ناظر الجهادية فى ١١ ذى الحجة ١٢٤٦ هـ .

والمعروف أن محمد على أنشأ فى باريس مدرسة حربية تحت اشراف وزير حربية فرنسا ، وكان اساتذة هذه المدرسة من الفرنسيين أما طلابها فكانوا من المصريين الذين اختارهم سليمان باشا الفرنساوى .

ولما كان محمد على يحرص على ألا يرتدى طلاب هذه المدرسة زى الفرنسيين ، ولا يحاكونهم فى عاداتهم وأحوالهم فقد أمر بارسال مائة وخمسين طربوشا وبعض الملابس بعدد الطلاب هناك (٢١) .

يضاف الى ذلك ان مدرسة الطب التى انشأها محمد على بغرض تخريج ضباط للقسم الطبى فى الجيش كانت موضع اهتمامه فذكر فى رسالة له الى بوغوص بك يقول « من المعلوم ان علم الطب أشرف العلوم ، وان لزوم تعليمه أمر صحيح .. وان الكتب اللازمة لتحصيله هى تحت الترجمة من اللسان الطلياني الى العربى والتركى ، وقد اعددنا من يعلمون ويتعلمون لتعليمه وتعلمه » (٢٢) كما أوضح له انه لكى يكون المتعلمون عارفين بعمليات التشريح لابد من استيراد « الصور والرسوم المصنوعة من الشمع العسلى وثمنها يقدر بتسعمائة فرانسة » (٢٣) .

ولم يقتصر ديوان المدارس على مهنة التعليم ، وتلقين المعارف بل كان يشرف على الانشاءات المدنية من ترع وجسور وقناطر وغيرها فبناء على اللوائح التى أصدرها محمد على أحيلت عملية التفتيش على كافة المبانى المعمارية الى ديوان المدارس وذلك لصيانتها من التلف (٢٤) .

وفى هذا الديوان تألفت جمعية من المهندسين تنظر فى الانشاءات المقرر اقامتها ، وتدلى برأيها الى ديوان المعاونة الذى يقوم بعرضه على

---

(٢١) نفسه : محفظة رقم (٢٥) من الجناب العالى الى أرتين بك فى ٢٧ ربيع الأول ١٢٦٣ هـ .

(٢٢) ديوان التجارة والمبيعات : محفظة رقم (٢) أوامر لديوان التجارة والمبيعات فى جمادى الآخرة ١٢٤٠ هـ .

(٢٣) نفسه :

(٢٤) نفسه : محفظة رقم (١٣) من محمد على الى كتخدا صاحب السعادة فى ٦ رجب ١٢٥٥ هـ .

محمد على فاذا وافق تحرر الأوامر باجراء العملية للمدير التى فى مديريته هذه العملية ، ويرسل الخبر بالعلم لديوان المدارس [٢٥] .

ومن أجل ذلك كان ديوان المدارس يحتفظ بجداول جميع العمليات القديمة والجديدة ، كما كان يحتفظ بسجل يشمل أسماء المهندسين وبيان وظائفهم وعملياتهم ، وكان المديرون يقومون بالاشراف على العملية ثم يقوم ديوان المدارس بالتفتيش بعد ذلك فاذا وجد خللا أو قصورا فى أى جهة يبلغ عنه ، واذا اتضح أن هذا القصور ناشىء عن اهمال من المهندسين تجرى محاكمتهم بديوان المدارس .

---

(٢٥) نفسه : صورة القرار الذى صار بطرف سعادة كتخدا باشا فى ٧ صفر ١٢٥٥ هـ .